﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾

[الأعراف: 99]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمّا كانَ ضَلالُهم - الَّذي نَسَبوا فيه الأمرَ إلى غَيرِ أهلِه - أشنَعَ ضلالٍ؛ لِتَضمُّنِه التَّعطيلَ، وما يَجُرُّ إليه مِنَ الأباطيلِ؛ كَرَّرَ الإنكارَ عليهم على وجهٍ أشدَّ مِنَ الأوَّلِ، فقالَ مُسَبِّبًا الإنكارَ عمّا أثبَتَ هذا الكلامُ مِنَ العَظَمَةِ الَّتي لا يتمارى فيها ذو لُبٍّ: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ﴾.

وتكرارُ الإنكارِ إشعارٌ بِعِظَمِ الذّنبِ، وإيذانٌ بالعقوبة، وإشارةٌ إلى استحقاقها بعد إهمالِ التّنبيهاتِ، والإعراضِ عنِ التّحذيرات.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَكْرَ﴾: الميمُ والكافُ والرّاءُ كلمتان: إحداهما بمعنى: الاحتيال والخداع[1]، فهو احتيالٌ في خِفية بغير ما يُضمَرُ[2]، أو صَرْفُ غيره عمّا يقصِدُه بحيلةٍ، وذلك ضربان: مكرٌ محمودٌ، وذلك أن يُتحرّى بذلك فعلٌ جميلٌ، وعلى ذلك قال: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: 54]، ومذمومٌ، وهو أن يُتحرّى به فعلٌ قبيحٌ، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: 43]، وقال في الأمرين: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ [النّمل: 50]، وقال بعضُهم: مِن مكرِ الله إمهالُ العبدِ وتمكينُه من أعراضِ الدّنيا[3]. فمَكرُ الله إيقاعُ بَلائه بأعدائِه دونَ أوليائِه، وقيلَ: هو استدراجُ العَبدِ بالطّاعات، فيَتَوَهَّمُ أنَّها مَقبولَةٌ، وهي مردودةٌ[4]، فالمَكرُ منَ الله: جَزاءٌ، سُمّيَ باسم مَكرِ المُجازَى، كما قال: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا﴾ [الشّورى: 40]، فالثّانية ليست بسيّئة في الحَقيقَة، ولكنّها سُمّيت سَيِّئَةً للجَزاء، وكذلك قَولُه جلّ وعزّ: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: 194]، فالأوّلُ: ظلمٌ، والثّاني:

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مكر).
(2) الفراهيديّ، العين: (مكر).
(3) الرّاغب، المفردات: (مكر).
(4) ابن الأثير، النّهاية: (مكر).

ليسَ بظُلمٍ، ولكنَّه سُمّيَ باسم الذَّنب؛ ليُعلَمَ أنّه عِقابٌ عليه، وجَزاءٌ به، ويَجري مَجرَى هذا قَولُ اللّه جلّ وعزّ: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النّساء: 142] و﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: 15][1]. وقيل: هو تدبيرٌ يُخفَى، ويُختَزَنُ لأحداثٍ، أو أُمور؛ لتقعَ في المستقبل على نحو ما. فاختزانُ هذه الخطوات المعَدَّةِ للمستقبل هو المكرُ، ومأخذُ هذا منَ الأصل، ويكون ذلك التّدبّرُ لخيرٍ أو لشرٍّ، ونسبتُه إلى اللّه تعالى بهذا المعنى لا تحتاجُ إلى تأويلٍ، فهو من صفات اللّه الفعليّةِ الخبريّة، لكنّها صفةٌ لا تكون إلّا بقيدٍ، فلا يُوصَفُ اللّهُ بها على الإطلاق إلّا مقيّدةً، وهي إذا كانَت في مقابلةِ مَن يفعلون ذلك؛ فهي كمالٌ، وإن ذُكِرَت مُطلقةً؛ فلا تصحُّ بالنّسبة للّه ﷻ، ولهذا لا يصحُّ إطلاقُ وصفِه بالماكر، أو المستهزئ، أو الخادع، بل تُقيَّدُ؛ فنقول: ماكرٌ بالماكرين، مُستهزئٌ بالمنافقين، فتقيّدها؛ لأنّها لم تأتِ إلّا مُقَيَّدَةً[2]. وكلُّ ما في القرآن منَ التّركيب فهو بهذا المعنى[3].

فالمكرُ في الآية المباركة تدبيرُ اللّه، وجزاؤه للكافرين.

❁ المعنى الإجماليُّ:

تقريرُ التّحذير، وتأكيدُ الإنذار، وعاقبتهما

لزيادة التّقرير كرَّرَ مُستفهمًا ومُتعجّبًا: أفأمن أهلُ القرى المكذّبةِ مَكرَ اللّهِ وإمهالَه لهم؛ استدراجًا لهم بما أنعم عليهم في دنياهم عقوبةً لمكرهم؟ قَصدًا إلى زيادة التّحذيرِ، والإنذارِ من أمنهم ما لا يُؤمَنُ، مُغترّينَ بالذّنوب، آنسين بالموبقات، فرحين بالسَّعةِ، والإملاءِ، والتّمكينِ، وطولِ الأمل، والإمهالِ، المورثين غفلةً، ودَعةً، واسترسالًا في المعاصي، اتّكالًا على واسع رحمتِه، ومديد مغفرتِه.

وكلُّ ذلك استدراجٌ لهم بما أنعمَ عليهم مع إقامتهم على الكفر،

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (مكر).
(2) ابن تيميّة، التّدمريّة، ص: 26، والمُناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 673.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مكر).

وتذكيرٌ وعظةٌ بأنَّ ما حلَّ بأولئك القوم من عذابِ الله يُماثلُ هيئةَ مكرِ الماكرِ بالمَكورِ، فلا يحسَبوا الإمهالَ إعراضًا عنهم، وليحذَروا أن يكونَ ذلك كفعلِ الماكرِ بعدوِّهِ[1]؛ ليترتّب على ذلك خسرانَهم أنفسَهم، وفقدانَ ما فيه نفعهم في الدّنيا والآخرة.

وتهدي الآيةُ الكريمةُ إلى: أنَّ العبدَ لا ينبغي له أن يكون آمنًا على ما معه منَ الإيمان، بل لا بدَّ من وجلٍ أن يُبتلَى بسلبِ ذلكم منه؛ فقلوبُ النّاسِ بين أصبعين من أصابع الرّحمن يقلبُهما كيف شاء، وينبغي له ألّا يزالَ داعيًا بقوله: (يا مقلب القلوب ثبتْ قلبي على دينك)، ولا ينبغي له المصيرُ إلى أمن مكر الله تعالى؛ اغترارًا بالنّعم، فذلكم سبيل الخسران[2].

وإلى أنَّ ما يأتي منَ الوعيد لأهل الكفر جزاء جنسِ إعمالهم، يرادُ منه أيضًا تحذيرُ المسلمين ممّا يُشبهُ تلك الأعمالَ بقدرِ اقترابِ شَبَهِهِ[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

التّعبير بـ ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾ دون غيرها:

تكريرُ الإنكارين السّابقين قصدًا إلى زيادة التّحذير والإنذار

جاء العطفُ بالفاء وإسنادُ الفعلِ إلى الضّمير؛ لأنّ الجملةَ المعطوفةَ تكريرٌ لقوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾، وتأكيدٌ لمضمون ذلك، فناسبَ إعادةَ الجملةِ مصحوبةً بالفاء[4]، وهو تكريرٌ إنكاريٌّ؛ لزيادة التّقرير[5]؛ تقريرِ التّعجيب من غفلتهم، وتقريرِ معنى التّعريض بالسّامعين منَ المشركين، مع زيادة التّذكيرِ بأنّ ما حلَّ بأولئك من عذابِ الله يماثلُ هيئةَ مكرِ الماكرِ بالمكورِ، فلا يحسبوا الإمهالَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/24.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنان، ص: 298.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/25.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/134، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/351.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/254.

إعراضًا عنهم، وليحذروا أن يكون ذلك كفعل الماكرِ بعدوِّهِ[1]، فالتّكريرُ في ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾ لمجموع الإنكارين السّابقين جمعًا بينَ التّفريقِ قصدًا إلى زيادة التّحذير والإنذار[2].

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظ (المكر):

﴿مَكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾ مصدرٌ أُضيفَ إلى الفاعل، وهو استعارةٌ لاستدراجه العبد وأخْذه من حيث لا يحتسبُ ولا يشعرُ، فعلى العاقل أن يكون في خوفه من مكر الله، كالمحارب الّذي يخافُ من عدوّه الكمينَ والبياتَ والغيلةَ[3]، والمرادُ بها بيانُ إتيان بأسِه تعالى في الوقتين المذكورين، ولذلك عُطِفَ الأوّلُ والثّالثُ بالفاء، فالإنكارُ فيهما متوجِّهٌ إلى ترتُّبِ الأمنِ على الأخذ المذكور، وأمّا الثّاني فمن تتمةِ الأوّلِ[4]، أو هي استعارةٌ تمثيليّةٌ للإمهال والإنعام في حال الإمهال، شبَّهَ حالَ الإنعامِ مع الإمهالِ، وتعقيبَهُ بالانتقام بحال المَكْرِ[5].

المكرُ إيذانٌ بالاستدراج المؤدّي إلى الأخذ دون شعورٍ أو تحسّبٍ، وباعثٌ على الخوف والتّرقُّب

سرُّ إضافة المكرِ إلى لفظ الجلالة:

إضافةُ (المكر) إلى لفظ الجلالة (الله): هي إضافةُ مخلوقٍ إلى الخالق، كما تقول: ناقةُ الله، وبيتُ الله، والمرادُ فِعلٌ مُعاقبٌ به مكرَ الكفرة، وأُضيفَ إلى الله لمّا أدّى معنى عقوبةِ الذّنب؛ فإنَّ العربَ تُسَمّي العقوبةَ على أيِّ جهةٍ كانَت باسمِ الذّنبِ الّذي وقعَت عليه العقوبةُ[6].

أدّى المكرُ معنى عقوبة الذّنب

نكتةُ تكرارِ لفظِ المكرِ:

كرَّرَ المَكرَ مُضافًا إلى الله تحقيقًا لوقوع جزاءِ المَكرِ بهم، وتوكيدًا لذلك[7]، فالتّكرارُ توكيدٌ، وترسيخٌ للمعنى، ويدلُّ على توحيد الله

وقوعُ المكرِ بهم أمرٌ محقَّقٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/23 - 24.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/12.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/134.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/254.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/24.
(6) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/433، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/351.
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/351.

تعالى في مكرِه وقدرتِه على إصابة مَن يشاءُ بما يشاءُ منَ العذاب والبلاء، وأن لا مانعَ له ولا مُعقِّبَ.

علّةُ التّصريحِ بالأمن منَ المكر:

المكرُ راجعٌ إلى العقوبة الآخرة، وعذابُها لا ينقطع

صرّح بالأمن منَ المكر، وليس منَ البأس؛ لأنّ المكرَ خسرانٌ، وحلولُ البأسِ بهم غيرُ متيقّنٍ منهم، مَن أمِنَهُ ليس كمَن أمِنَ المَكرَ والإمهالَ؛ ولأنّ المكرَ راجعٌ إلى العقوبة الآخرة، وعذابُها لا ينقطعُ، والمكرُ في الدّنيا، فمَن أمِنَ المكرَ؛ فهو الخاسرُ حقيقة[1].

بلاغةُ التّذييلِ في المختتم:

سببُ خسرانِ أهلِ القرى أَمْنُهم مكرَ الله

قولُه: ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ مُترتِّبٌ عنِ التَّعجيب ومُتفرِّعٌ منه في قوله: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾؛ لأنّ المقصودَ منه تفريعُ أنَّ أهلَ القرى المذكورين خاسرون لثبوت أنّهم أمِنوا مكرَ اللّه، والتّقدير: أفأمنوا مكرَ اللّه فهم قومٌ خاسرون، وإنّما صيغَ هذا التّفريعُ بصيغةٍ تعمُّ المخبَرَ عنهم وغيرَهم؛ ليجري مَجرَى المثلِ، ويصيرَ تذييلًا للكلام، ويدخُلَ فيه المُعَرَّضُ بهم في هذه الموعظةِ، وهُمُ المشركون الحاضرون، والتّقديرُ: فهم قومٌ خاسرون، إذ لا يأمَنُ مكرَ اللّهِ إلّا القومُ الخاسرون[2].

فائدةُ الاستثناءِ المفرّغ:

عدمُ الأمنِ مُقتصِرٌ على الخاسرين، ومخصوصٌ بهم

أفاد الاستثناءُ المفرّغُ في قوله: ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ حصرَ عدمِ الأمنِ بالخاسرين، وقصرَه عليهم، واختصاصَه بهم، فجعلَه في قوّةِ المثبتِ، فلا يأمنُ المكرَ إلّا هم.

براعةُ نفي المضارع بـ(لا):

نفيُ الفعل المضارع ﴿يَأۡمَنُ﴾ بـ(لا) غيرَ مقيَّدٍ بزمنٍ فتحَ احتمالَ إمكانِ النّفيِّ في الحال، والاستقبالِ، وديمومتَه، والاستمرارَ عليه،

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/237.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/24.

يعزّزُه جملةُ ﴿ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ الدّالّة على حدوث الخسران، وثبوتِه وصفًا ملازمًا لهم، فهم لغفلتِهم وجهلِهم لا يعرفون ربَّهم، فلا يخافونَهُ، ومَن هذه سبيلُهُ، فهو أخسرُ الخاسرين في الدّنيا والآخرة؛ لأنّه أوقعَ نفسَه في الدّنيا في الضّررِ، وفي الآخرة في أشدِّ العذابِ[1].

مَـن لا يـعـرفُ سـبـيـلَ ربِّـه فـهـو أخـسـرُ الخاسرين

بديعُ الاستعارة في لفظ الخسران:

الخسرانُ - هنا - هو إضاعةُ ما فيه نفعُهم بسوء اعتقادهم، شُبِّه ذلك بالخسران وهو إضاعةُ التّاجر رأسَ مالِه بسوء تصرّفِه، فهي استعارةٌ تصريحيّةٌ تبعيّةٌ لكونها في اسمٍ مشتقٍّ ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾؛ لأنّهم باطمئنانهم إلى السّلامة الحاضرة، وإعراضِهم عنِ التّفكّرِ فيما يعقبُها منَ الأخذ الشّبيه بفعل الماكر، قد خسروا الانتفاعَ بعقولهم، وخسروا أنفسَهم.

أضـاعـوا ما فيـه نـفـعُـهـم، وخـيـرُهـم، وهدايتُهم بسوء اعتقادهم

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المكر والكيد:

عبّر بالمكر دون الكيد؛ لأنّ الكيدَ احتيالٌ بغير ما يُبدي، والمَكرُ: احتيالٌ بغير ما يُضمِرُ، والكيدُ في الحرب حلالٌ، والمكرُ في كلِّ حالٍ حرامٌ[2]، وقيل: الكيدُ أقوى منَ المَكرِ؛ لأنّه يتَعَدَّى بنفسِهِ، والمَكرُ يتعدّى بحرفٍ، والّذي يتَعَدَّى بنفسِهِ أقوى[3].

فناسبَ استخدامُ لفظِ المكرِ دون الكيد في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾؛ لكون الآية تُحذِّرُ أهلَ القرى من عذاب اللّه تعالى الّذي لا يشعرون به حتّى يأتيهم بغتةً، وأنّ هذا العذابَ هو نتيجةُ ما كانوا يكسبون من كفرٍ وطغيانٍ، ولا يصحُّ أن يستخدمَ لفظُ الكيدِ في هذا المقام؛ لأنّه لا يليقُ بجبروتِ اللّه تعالى وقهرِه.

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/322.
(2) الفراهيديّ، العين: 5/370.
(3) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 771.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع عشر، سورة الأعراف من الآية 88 إلى الآية 163
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع عشر، سورة الأعراف من الآية 88 إلى الآية 163 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 14 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-10-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 14 : المجلد الرابع عشر، سورة الأعراف من الآية 88 إلى الآية 163.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-10-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0402725 بتاريخ 2023/12/30م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»